إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى ـ العدد الثاني ـ صيف ١٣٩٠ش / حزيران ٢٠١١م

دراسة نقدية فی مبنی خمريات أبی نواس

يوسف هادی پور نهزمی*

الملخص

تطلق الخمريات على الأشعار التى تتناول عالم الشراب، بدءا بالخمرة وأوصافها، مرورا بأوانيها وأشكالها، ورجوعا إلى مواطنها وكرومها ووصفا لمجالسها وما تضمّه من سقاة وندمان وغناء ولهو وطرب، وتتبّعا لتأثيرها فی النفس، ودبيبها فی مفاصل الجسد، وما يحصل منها من نشوة، وخيلاء، وما يجرى فی مجالسها من طرائف ولطائف، وطقوس وشعائر، وغير ذلک ممّا جعل القصائد الخمرية أو الأبيات التى تضمّها قصائد الشعر العربی فی هذا الموضوع، تحتل مكانة بارزة، وتكاد أن تكون نوعا مستقلا بذاته. لما تتميّز به من خصوصية الوصف، والسّياق القصصی أحيانا، ومن أبعاد سياسيّة واجتماعيّة فی بعض الأحايين، وأبعاد فكرية، وتأملية ذات منحنی فلسفی ظاهر فی أحيان أخرى. ولاشکّ فی أنّ أبانواس هو رائد الشعر الخمری أبدا. على أنّه اتّخذ الخمرة مدخلا إلى عالم السياسة، والسعادة، والجمال، والمعرفة، ومخرجا وحيدا من سجن المجتمع وسجن أعرافه، و تقاليده، ومأزق الوجود. بسبب هذه الأهمية البالغة نعالج خمرياته من الناحية الشكلية حتّى تتبين الوجوه المتميزة فی شكل خمرياته كمقدّمة لدراسة مضمون خمرياته فی مقال آخر.

الكلمات الدليلية: أبونواس، رائد الشعر الخمرِی، الخمريات، مجالس الخمر.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية ـ أستاذ مساعد.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندی.

Hadi1339@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٣/٢٦هـ. ش   تاريخ القبول: ١٣٩٠/٥/١٤هـ. ش

المقدّمة

لايمتاز أبونواس بالمدح ولا بالهجاء ولا بغير هذه الفنون، بل إنّه يمتاز بشعره الخمرى، واقترن ذكره بالخمرة وبقى اسمه ملازما لها حتّى يومنا هذا. قيل: إنّه شاعر الخمر، وقيل: إنّه مؤسس مدرسة الخمر، واعتبره الكثيرون زعيما بلا منازع للخمريات فى الأدب العربى. ولا شكّ فى صحّة جميع هذه السمات، ولكنّ السؤال هنا: كيف ظّل زعيما للخمريات مع أنّه لم يكن أوَّل من ابتكر هذا الفنّ فى تاريخ الشعر الخمرى؟ بل سبقه إليه أكثر من شاعر فى العصر الجاهلى وفى العصر الإسلامى وفى عصره بالذّات. ونافسه فيه كثير من معاصريه وسبقه إليه كثيرون. إذا توغّلنا فى الموضوع، نجد أكثر من عاملٍ قد جعل من أبى نواس، شاعر الخمر بلا منازع فى الأدب العربى، وزعيم القدماء والمحدثين منها أنّه:

بلغت الخمرة عنده مرتبة كبيرة من التعظيم والتقديس، على حسب الظاهر، بحيث أنّه استطاع أن يخلق منها عالما شعريا يجسّد من خلاله طاقته الروحية والإبداعيّة والفكرية، بحيث قد بيّنت خمرته عمق نظرته إلى الحياة، والوجود، والإنسانية. فيخلق بواسطتها عالما جديدا متفّردا بأفكاره وآرائه وبإمكاننا أن نسمّيه عالما نواسيّا. فخمرته خمرة يمتزج فيها الإحساس بالفكر والروح، وتذوب فيها النفس شوقا إلى الخلاص من المصائب والآلام. ففيها صفات كلّ ما هو جميل ونقّى، تحنّ إلى الصور والأسرار، وتتكلّم بالإيحاءات. فهى محرم الأسرار.ثم إنّه جعلها مرآة، يرى من خلالها تحوّلات مجتمعه وتحوّلات العالم وجماله، كأنّها كأس الملک جمشيد الأسطورى. كما جعلها وسيلة لثورته وتمردّه على الأعراف الاجتماعية، والسنن الشعرية. وأكثر من ذلک كانت وسيلة لتعامله مع الناس والتعايش بينهم، وفى تلک الحال كانت وسيلة لمحاربة القبح مع الإكثار فى ذكر القبح. وكانت تعويضا يستبدل به كلّ مايكره بكلّ ما يحبّ، وتعويضا عن الحرمان فى ظلّ خلافة وخليفة يدّعى بأنه خليفة إسلامية وينشر الصدق والصفا، مع أنه ناشر الكذب والرّياء. فلا شک فى أنه زعيم الشعر الخمرى، على أنّه اتّخذ الخمرة – هذه الفاكهة المحرمة – مدخلا إلى عالم المعرفة وعالم السياسة وعالم السعادة والجمال،

ومخرجا وحيدا من سجن المجتمع وسجن أعرافه وتقاليده وقيوده ومن مأزق الوجود.

إنّه اتّخذ هذه الوسيلة المألوفة عند الناس، رمزا لتجسيد ما هو ضدّه. يتكلّم عن لسان وسيلة محرّمة ولكن، شائعة ومتداولة، لتبيين ما هو أخلاق، كما يقول طه حسين: «كان أبونواس إذن فی هذا الشعر المخالف للأخلاق وأصول الفضيلة، محبّا للأخلاق وأصول الفضيلة. كان يؤثّر الصدقَ وينكر الكذب.» (حسين، ۱۹۷۶م، ج۲: ۲۶۴)

هذا هو بعض الخصائص لخمريات أبی نواس، الخصائص الّتی جعلته زعيما بلا منازع للشعر الخمری. وإن كنّا لا نشكّ فی أنَّ أبانواس قد شرب الخمرة ولكنّنا نشكّ كثيرا فيما قيل عن مجونه وميله إلی التفحّش والتهتّک ونرفض بعد كلّ ما عرفناه عن أبی نواس من ممّيزات أن يكون ماجنا بالفعل، أو عربيدا أو متهتّكا، كما يشهد أبونواس بقوله: «واللّه ما فتحتُ سراويلی لحرامٍ قطُّ.» (ابن عساكر، ۱۳۳۲ش، ج۴: ۲۶۴) وكما يقول عند الإجابة للجمّاز الذی يدعوه إلی التوبة: «يا أبا عبداللّه ما أشركت باللّه طرفة عين قطُّ.» (ابن منظور، ۱۹۹۵م: ۳۰۲) ونحن نری بأنّ لشعره مظهرين: مظهرا ظاهريا وعلنيا يُساير ويرضی مجتمعه، ولا بدّ له أن يتّخده لتعايشه مع الناس. ومظهرا باطنيا، يجسّد فكر أبی نواس وآفاقه الروحيّة والنفسيّه والسيّاسية والاجتماعية. والمظهر الأوّل – برأينا – كان ستارا لحفظ المظهر الثانی وفی الحقيقة اتخذ التقيّة بشكل يخصّه ويخصّ القرن الثانی للهجرة.

ولكلٍّ إنسان ملتزم بالقيم الاجتماعية والإنسانية، طريق خاص يتّخذه عند الشدائد أمام سلطة الجور وسلطان جائر. ولكّل شاعر ملتزم، أسلوب خاص فی التعبير عمّا يعتقده ويختلج فی ضميره.

فليس شاعرا ملتزما من لايعرف زمانه، ولايفهم حوائج مجتمعه ولايدرک خصائص الدولة الّتی فی ظلّها يعيش، وليس الشاعر الملتزم ذا ذكاوة إن لايتخذ وسيلة مألوفة عند الناس ومناسبة للعصر والمجتمع، رمزا لتبيين ما يريده ويتنّماه. وهذا هو أبونواس، له استطاعة خاصة، وقدرة فنية خلاقة، استعملها بأحسن وجه من الوجوه المألوفة.

خمرياته من حيث الشكل

علمنا بأنّ الشعر الخمرى ليس من الموضوعات الجديدة، وقد عرف فى الشعر الجاهلى وفى صدر الإسلام وفى العصر الأموى وأوائل العصر العباسى. ولكنّه ما كان فنّا مستقلّا، بل الشعراء كانوا يقصدون به إلى غرض أصلى وهو الفخر ومدح المحاسن والأخلاق الكريمة. ثم إنّ الألفاظ والمعانى كانت متكررّة إلى حد كبير. فلسنا فى هذا المقال نعالج المعانى المتداولة عند الشعراء قبل أبى نواس فى هذا الفن.

وأمّا الذى سنتناول فى هذا المقال فهو الشعر الخمرى من حيث الشكل من الجاهلية إلى قبيل عهد أبى نواس للتعرّف على موارد الخلاف فى شكل خمريات أبى نواس وما أتى بجديد فى هذا الفن من ناحية الألفاظ والصور والتشبيهات الجديدة بالنسبة للشّعراء قبله، دون النظر إلى الأغراض والمعانى الجديدة التى سنعالجها فى مقال آخر.

وأمّا الشعراء الجاهليّون عندما وصفوا الخمرة فأجادوا فيها بعض الإجادة، ولم يكن وصفهم عميقا وكانوا يقنعون بالظواهر، يصفون أقداحها وأباريقها ومكان شرائها وصفا مجملا ويصفون طعمها عند مزجها بالماء وما تُثير من نشوة، غير مبالغين فى هذا الوصف ولا مسرفين فى البحث عن الدقائق. كما وصفها عمرو بن كلثوم فى معلّقته التى استهلّها بنسيب خمرى بدلا من النسيب الطللى، خلافا لأسلوب الشعراء قبله و معاصريه حيث يقول:

ألا هُبّــى بصحنــك فاصبحينا   ولاتُبقــى خمــور الأندرينــا
مشعشــعةً كأنّ الحُــصَّ فيهــا   إذا مــا المــاءُ خالطَها ســخينا

(البستانى، ١٩٦٠م، ج١: ١٢٩)

إنّه يذكر الصحن – وهو القدح الكبير– ويشير إلى الشرب فى الصباح، ويذكر قرية مشهورة فى جنوبى حلب وهى «الأندرين» وخمرها مشهور. يشبه لون الخمرة عند مزجها بالماء الساخن بلون الحُصّ، وهو نبت له زهر أحمر إلى الصفرة، يشبه الزعفران.

وللبيد بن ربيعة أبيات يكتفى بأن يصف الخمرة بصفائها ويصف خابيتها بلون أغبر وجونة، حيث يقول:

أغلی السـبـاءَ بـكلِّ أدكنَ عاتقٍ أو جونةٍ قُدِحتْ و فضَّ ختامُها
بصبـوح صافية وجـذب كرينة بمؤثـرٍ تأتالـه إبهامُهـا

(المصدر نفسه: ۱۱۰)

أدكن بمعنی أغبر اللون وهو صفة للزُّق المحذوف. والجونة بمعنی السوداء وهی صفة للخابية المحذوفة. وهو أيضا يشير إلی شرب الخمرة فی الصباح مبكّرا قبل أن تُصبح الدجاج، وفی وصفه شیء إضافی بالنسبة لعمرو بن كلثوم وهو حضور امرأة تضرب علی الكِران وهو نوع من العيدان، فلبيد يجسّد لنا مجلسا فيه خمرة صافية و امرأة عازفة وما يلازمها.

فی حين نری عدی بن زيد العبادی يصف الخمرة أجمل وأوسع وأروع بالنسبة للآخرين لأسباب، ومنها: أنّه كان نصرانيا عارفا بمجالس الخمرة وآدابها. ثم إنّه نشأ فی «الحيرة»، بالقرب من إيران، ودرس العربية والفارسية، فاتّصل بهرمز الرابع – أحد ملوك فارس– وتأثّر بالحضارة الفارسية، وهی علی أوجها فی عهد كسری أنوشروان.

فلهذا نری فی أبياته – علی جاهليتها وبداوتها – رقة الحضارة إذ يقول:

وَدَعوا بالصبـوح يوماً، فجاءت قينـةٌ فـی يمينهـا إبريـقُ
قدّمتْه علـی عُقار كعين الديک صَفّـی سُـلافَها الـراووقُ
مُـرّة قبـل مزجهـا، فـإذا ما مُزجتْ لـذَّ طعمَها مَـن يذوقُ
وطفـا فوقهـا فقاقيُـع كاليـا قـوتِ حمـرٌ يُثيُرهـا التصفيقُ
ثـم كانَ المـزاجُ ماءَ سـحابٍ لا صـدی آجـن و لا مطروق ُ

(المصدر نفسه: ۲۶۱–۲۶۲)

وهو أيضا يشير إلی شرب الخمرة فی الصّباح، ولكن شربه يختلف من شرب الآخرين، علی أنّه مدعوّ فی مجلس من مجالس الشراب، فلم يشرب علی يده، بل شربها علی يد مغنّية فی يمينها إبريق حافلة بالخمرة. قدّمت المغنية إليه خمرة لونها كلون عين الديک، وهو نوع من النبت، وقد نقّحتها بالمصفاة قبل الشرب. يشير إلی مزجها بالماء ولذّتها، و لكنّنا نری فی وصفها شيئا إضافيا، وهو وصف الفقاقيع التی تتشكّل عند مزجها بالماء،

ويشبّهها بالياقوت فى حمرتها. ويذكر بأنّ المزاج كان ماء صافيا وهو ماء سحاب ولاماء آجن ولامطروق.فنرى فى وصفه تعابير جديدة وألفاظا جيدة بالنسبة للآخرين لأسباب ذكرناها.

وأمّا الأعشى، فعنده للخمرة منزلة خاصة وله فى وصفها يد طولى، وهو لا يكفى بوصف الخمرة بلسانه، بل يظهر لنا أثرها فى النفس ويتكلّم عن لسان شارب الخمرة ويجسّد لنا حركاته وسكناته عند وصف الخمرة.انظروا إلى هذه الأبيات:

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعنى — شاوٍ، مِشَلٌّ، شَلولٌ، شُلشُل، شَوِلُ
نازعتُهم قُضَبَ الريحان، متكئا — وقهــوة مُــزّة، راووقهــا خَضِلُ
لايســتفيقون منها، و هى راهنة — إلاّ بـ«هاتِ» وإن عَلّوا وإن نَهلوا
يسعى بها ذو زجاجاتٍ له نطف — مقلِّصٌ أســفَلَ السربالِ، مُعتَملُ
ومستجيب لصوت الصنج تسمعه — إذا ترجّــع فيــه القينــة الفُضُلُ

(المصدر نفسه: ۲۲۸-۲۲۹)

يشير إلى ذهابه إلى الحانوت صباحا باكرا ويشرح لنا القضايا الّتى حدثت هناک. الألفاظ المستعملة تدلّ على أنّه سكران وهى كثرة الشينات فى الشطر الثانى من البيت الأوّل. إنّه يصف لنا أحدى مجالس الشرب، يشربون من إناء دائم الرّطب من أثر الخمرة وهم فى حالة السكر. لايستفيقون من هذه الحالة إلاّ بقولهم للساقى «هاتِ». يسعى بها غلام مقرّط فى يده زجاجات وله سربال قصير يزيد على جهده فى الخدمة، وفى المجلس قينة تضرب العود، وصوت العود مستجيب لصوت الصنج يضربها شخص آخر. فالأعشى يصف لنا مجلسا من مجالس الخمر ويصوّر لنا حالاتهم الخاصة عند شربها بدقة تامة بحيث لم يأت بها شاعر جاهلى آخر.وفى مكان آخر يقول:

وَصهبــاءَ طــافَ يهوديُّها — وأبرَزَهــا وعليهــا خُتُــم
وقابلهــا الريحُ فــى دنِّها — وصلّى على دنِّها وارتشم

(المصدر نفسه: ۲۳۵-۲۳۶)

سُمّيت الخمرة بصهباء، نظرا إلى لونها وهو الأشقر الضارب إلى الحمرة وعليها ختم. فما كان الدنُّ مفتوحا و هذا يدلُّ على أصالة الخمرة. وأيضا له وصف جميل لم يُسمع

من أحد الشعراء قبله، وهو وصف لحظة تهب الريح على الدّن وتبردها، ويشبه الصوت الحاصل عند الالتقاء بالدّن، بصوت الراهب الذى يصلّى ويقوم بالدّعاء.

كان الأعشى ذا ثقافة واسعة.إنّه قطع العراق إلى بلاد الفارس ومدح ملوكها وأدرك الإسلام. وعلى هذا نراه قد تأثّر بالقرآن الكريم فى اللّفظ والتّعبير، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (المطفّفين: ٢٥) وهذا التأثر مشهود فى استعمال فعل «صلّى» و«ارتشم» وهو ذكر الدعاء. وهكذا من كلمة «خُتُم». وله قصيدة أخرى فى مدح أياس بن قبيصة الطائى ومطلعها:

وَشمولٍ تحسبُ العينُ، إذا　　　صُفِّقَتْ، وُردَتَها نورَ الذُبَح

(البستانى، ١٩٦٠م، ج١: ٢٤٤)

يسمّى الشاعر الخمرة شمولا وهى الخمرة التى هبّت عليها الريح الشمالية وأبردتْها، ويشبه لونها بنور الذُبَح، وهى نبتة حمراء. ويشير إلى رائحتها ويذكر إناء الخمرة وينعتها بجونة جارية، وهى إناءة حافلة بالخمرة من مدينة الحيرة، ويصف الإبريق والقدح ويشير إلى كثرة الخمرة حيث إذا صبّ الماء عليها أزبدت وذهبت إضافاتها. ثم يصف مجلس الخمر وما فيه من مغّنٍ وآلات الطرب والشّرب، ويذكر الشباب كأنهّم مصابيح فى الدجى ويصف أحوالهم فى حالة السكر حيث لايستطيعون القيام ويجرّونهم الآخرون.

وخلاصة القول إنّ الأعشى من أحسن الوصّافين للخمرة ويفوق على سائر الشعراء الجاهليين جميعا.

وأما خمريات حسّابن ثابت من حيث الشكل، فيختلف من خمريات الآخرين، إذ إنّه من المخضرمين ومتأثّر بالقرآن الكريم وهو شاعر النبى(ص). وعندما يصف الخمرة يذكرها بصفات ذُكرت فى القرآن الكريم. نذكر بعض الأبيات له على سبيل المثال:

يَسقُونَ مَن وَرَدَ البريصَ، عليهم　　　بَردَى يُصفَّقُ بِالرحيق السَّلسَلِ
يُسقَونَ درياقَ الرّحيق، ولم تكن　　　تُدعى وَلائِدُهم لِنَقفِ الحنظلِ
بيض الوجوه، كريمة أحسابُهُم　　　شمُّ الأنوفِ من الطّراز الأولِ

(البستانى، ١٩٦٠ م، ج٢: ٢٥)

كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (المطفّفين: ٢٥) أو كما ورد: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ (الإنسان: ١٧-١٨) وإنّه قدأتى بوصف جديد فى وصف الخمرة وشبّهَ طعمها بطعم الفلفل حيث يقول:

ولقد شربتُ الخَمر مِن حانوته   صهبـاءَ صافيةً كطعـمِ الفلفلِ

وثم يكررّ وصف الأعشى ويقول:

يسـعى علىَّ بكأسـها متنّطِفٌ   فيعِلُّنـى منهـا، ولو لَـم أنهلِ

والمتنطفّ غلام ذو قرطة. وبعد ذلک له بيت مشهور وعذب وهو:

إنّ الّتـى ناوَلتَنـى فرددتُهـا   قُتِلتْ ـ قُتلتَ ـ فَهاتها لم تُقتل

(البستانى، ١٩٦٠ م، ج٢: ٢٥)

وهذا تعبير رائع وجديد يلائم الذوق الأدبى وهكذا فيه شىء من الحكم الشرعى وطريق لتحليل الخمر، ذكرناها آنفا وبعد ذلک يصف حركة الخمرة فى قعر الزّجاجه ويشبهها بحركة الراكب على الناقة عند السير، وهى كحركة الرقاصة عند الرقص و هذا أيضا وصف جديد، ولم يأتِ به شاعر قبله.

وله قصيدة أخرى فى الخمر يبدأها بنسيب طللى كما يبدأ الشاعر الجاهلى ولكنّه فيه فرق كبير، إذ لها نسيب سلبى ولا إيجابى ومطلعها:

ما هاجَ حسّانَ رسومُ المُقام   ومظعـنُ الحّىِ ومبنى الخيام

والنؤىُ قـد هـدَّم أعضادَهُ   تقـادُمُ العهـدِ بـوادى تِهام

آثار الحضارة فى هذه الأبيات واضحة إذ إنّ حسّان حضرى بالنسبة للشعراء قبله. فهو يمدح الأحياء ويميل إلى الحياة ولا يميل إلى ذكر ما مضى. ثم ينتقل إلى مدح الخمرة والأماكن المشهورة لشرائها ويصف مجلسا من مجالس الخمرة ويشير إلى مفعولها فى النفس و له فيه تعبير جديد إذ يقول:

تـدبُّ فى الجسـم دبيبـا كما   دبَّ دَبَـىً وسـطَ رَقـاقٍ هَيام

(المصدر نفسه: ٣٢-٣٣)

وفعل «دبّ» يدلّ على تأثير الخمرة فى الجسم بصورة تدريجيّة ويشبهها بحركة الدبى، وهو موجود أصغر من النمل، فى وسط الرمل.

نكتفى بهذا المقدار من شكل الخمريات عند حسّان بن ثابت قائلا بمقدار قليل من التقدّم عنده فى وصف الخمر وذكر مجالسها من حيث الشكل دون المعنى وننتقل إلى العصر الأموى ونذكر زعيم الشعر الخمرى فى تلك الفترة وهو الأخطل، الشاعر النصرانى الذى لقّب بشاعر بنى أمية بالحق. وله قصائد كثيرة فى الخمرة ومجالسها، ومنها قصيدة يشبه فيها أوانى الخمرة الكبيرة برجالٍ من السودان دون أن يتسربلوا دلالة على عظمة الإناء وامتلائها بالخمرة مع الإشارة إلى لونها الأسود حيث يقول:

أناخوا، فجّروا شــاصيات كأنّها رجالٌ من السودان لم يتسربلوا

ثم يستعمل كلمة «عقار» ويشير إلى ضوئها وتبركّها، على أنّه نصرانّى وعندهم للخمرة قداسة، إذ يقول:

تُمَرُّ بها الأيدى سنيحاًوبارحاً وتوضع باللّهمَّ حــىّ وتُحمَلُ

وبعد ذلک يشير إلى ارتياح الشارب وطيب الخمرة ويكررّ الوصف الذى أتى به حسّان ويقول:

تدبُّ دبيباً فــى العظام كأنّه دبيب نمــالٍ فى نقــا ًيتهيّلُ
فقلتُ: اقتلوها عنكُم بمزاجها فأطيبُ بها مقتولة ًحينَ تُقتلُ

(المصدر نفسه: ٩٢)

إلاّ أنّه يرجّح المقتولة من الخمرة، وهى الممزوجة بالماء، فى حين يرجّحها حسّان غير مقتولة ويطلب الصرف منها. وهذا شىء عجيب على أنّ حسّان رجل مسلم وشرب الخمر حرام فى دينه، وهو يطلب الصرف منها والأخطل رجل نصرانى ولا مانع له فى شربها وهو يطلب المقتولة منها الّتى تأثيرها فى الجسم أقلّ بسبب امتزاجها بالماء.وفى مكان آخر يأتى بوصف جديد وجميل ويشبه لون الخمرة بالكوكب المرّيخ لحمرتها حيث يقول:

فجــاءَ بهــا، كأنّها فــى إنائه بها الكوكب المرّيخ تصفو وتُزبدُ

(المصدر نفسه: ٩٣)

فما رأينا شيئاً جديداً عند الأخطل فى هذا الفّن إلاّ بعض التعابير الّتى تدلُّ على تقديس الخمرة عنده وهذه القداسة تعود إلى دينه. كما نرى خلفية هذه القداسة فى بعض الأديان و سنشير إليها وتأثيرها عند الإتيان بتعابير جديدة ومعانى رمزية عند أبى نواس.

وأمّا أوّل من بدأ بتغيير فى شكل الخمريات فهو الوليد بن يزيد وبعض شعراء الكوفة فى أوائل القرن الثانى للهجرة. و هذا أمر طبيعى أن يظهر هذا اللون الجديد من الشعر الخمرى فى الكوفة لوجودها فى وسط الأديرة النصرانية، وقد نهج هؤلاء الشعراء الكوفيّون نهجا جديدا فى شعرهم عامّة وفى الخمريات خاصّة فى شكله وأسلوبه ومعانيه الّذى يميل إلى الخفّة وسهولة اللفظ والعبارة ومسايرة المعانى لروح الحضارة والمدنية. على سبيل المثال نذكر أبياتا لهذا النهج من شعر الوليد بن يزيد، الخليفة الأموى الشاعر:

إصدع نجيَّ الهموم بالطرّب — وانعم على الدهر بابنة العنبِ
واستقبل العيش فى غضارته — لاتقـفُ منــه آثــارُ معتقبِ
مــن قهــوةٍ زانهــا تقادُمُهــا — فهى عجوزٌ تعلو على الحقبِ
أشهى إلى الشرّب يومَ جلوتها — مــن الفتاة الكريمة النســبِ

(المصدر نفسه: ٢٣٣)

إلى آخر الأبيات فيها تعابير جديدة عن الخمرة: ابنة العنب، قهوة، عجوز وما إلى ذلک. والآن لايهّمنا المعانى الموجودة فيها، ولكن الشىء الذى يهمنا فى هذا الفصل هو الشكل والبحور الخفيفة الّتى اتّخذها الوليد فى شعره الخمرى. انظروا إلى هذه الأبيات:

أدِر الـكأسَ يمينــاً — لاتُدرهــا ليســارِ
اســقِ هــذا ثــمّ هذا — صاحب العَود النُضارِ
مــن كُميــتٍ عتّقوها — منــذُ دَهرٍ فــى جرارِ
ختموهــا بالأفاويــ — ــه وكافــورٍ وقــارِ
فلقــد أيقنــتُ أنــى — غيــر مبعــوث لنــارِ

(حسين : ١٩٧٦م، ج٢: ٨٠)

على هذا نعتقد بأنّ شعر الخمر قد تلّونَ بلون الحضارة الجديدة فى الكوفة إلى آخر عهد الأمويين وأوّل عصرالعباسييّن واستمدَّ بعض معانيه من تراث الفرس، أو النصارى. فتنوّع الشعراء للخمر وصفاته، فقالوا فى تقديره وذكر مكانته، وشبّهوه بعروس غالية المهر، ووصفوا رائحته وما يوضع حوله أو جنب كؤوسه من مختلف لأفاويه والطيب وأنواع الرّياحين، وقالوا فى ذكر تعتيقه و قدمه و وصف رائحته و فعله فى النفوس و حالات السكرى والنشاوى ممّن دارت برؤوسهم، وما قد يحدثه المزج به من فقاقيع وما يشعشع من ألوانه فى الكوؤس ووصف الكؤوس والأباريق وما إلى ذلک.

الخمرة عند أبى نواس وسيلة للفخر، يبذل فيها الدرّ والياقوت ويفتخر بشربها وبإتلاف المال فيها، ليدلّ على جوده وكرمه كما يفتخر الشاعر الجاهلى:

إنى بذلــتُ لها لمّا بصرتُ بها صاعاً من الدُّر والياقوت ما ثُقِبا

يا قهوة حُرّمت إلاّ على رَجُلٍ أثرى فأتلفَ فيهاالمالَ والنشبا

(نجيب عطوى، ١٩٨٦م: ٥٢ – ٥٣)

ولو يخلو من معنى جديد ولكنّه من ناحية الألفاظ رائعة جدا.وخمرته مشرقه منيرة دائما، تضىء أينما وجدت فى البيت أو الحانة:

ترى حيثُ ما كانت من البيت مشرقا وما لــم تكن فيه مِــن البيت مغربا

يــدور بهــا ســاقٍ أغــن تــرى له على مُســتدار الأذن صُدغا معقربا

(المصدر بنفسه: ٤٤ – ٤٥)

وهى بأضوائها وتلألؤها شمس:

قامــت بإبريقهــا والليــل معتكــر فَلاحَ من وجهها فــى البيت لألاءُ

فأرســلتْ من فــم الإبريق صافية كأنّمــا أخذُهــا بالعيــن إغفــاءُ

جفّــت عن الماء حتــى ما يلائمها لطافــةً وجفا عــن شــكلها الماءُ

فلو مزجــتَ بهــا نــوراً لمازَجَها حتّــى تولّــدَ أنــوارٌ وأضــواءُ

(المصدر نفسه: ١٠)

وهی کالورد وکعین الدیک حمراء، وحین تختلط بالماء تفورُ، وتبدو فقاقیعها فوقها بیضاء کالحُبب أو حبّات الدُّر:

وقهــوة کجنــیِّ الــورد خالصة		قدأذهب العتقُ فیها الذامَ والرنقا

(المصدر نفسه: ٢٨۴)

وفی مکان آخر یشبه وثبة الفقاقیع بحرکة الجراد فی ظلّ المروج:

واشرب سُلافاًکعین الدیک صافیةً		من کفَّ ســاقیة کالرّیــم حوراءِ
تنــزو فواقعها منهــا إذا مُزِجت		نــزوَ الجنادب فی مــرجٍ و أفیاءِ

(المصدر نفسه: ١۴)

ویفتنّ فی تصویر کؤوسها وأباریقها صورا فنیة جمیلة أبدع خلقها وتکوینها، ویقول فی إبریقها وهو علی صورة ظبی مشرف من مکان عال:

کأنَّ إبریقنــا ظبی علی شــرفٍ		قد مدَّ منه لخوف القانص العنقا

(المصدر نفسه: ٢٨۴)

وأحیانا هی کالکراکی تمدُّ برقابها الطویلة ورؤوسها الدقیقة:

لدینــا أباریــقُ کأنَّ رقابَهــا		رقابُ کراکیٍّ قد نظرنَ إلی صقرِ

(المصدر نفسه: ١٨٨)

ویجمع الصورتین معا فی واحدة فیقول:

فی أباریــقَ من لُجَینٍ حســانٍ		کظبــاءٍ ســکنَّ عــرضَ القفارِ
أو کراکٍ ذُعِرنَ من صوتِ صقرٍ		مفزعــاتٍ شــواخص الأبصارِ

(المصدر نفسه: ٢٠۶)

وتصبّ الخمر فی الأباریق وفی الکؤوس، وهی بیضاء زجاجیة أو من نحاس مصّور علیه صورة الأکاسرة أو صور الحیوان:

والکوبُ یضحک کالغزال مسبّحا		عنــد الرکــوع بلثغــة الفافــاءِ
وکأنَّ أقــداح الزجاج إذا جرت		وســطَ الظلام، کواکــبُ الجوزاءِ

(المصدر نفسه: ٢٩)

وفی مکان آخر یقول:

فحــلَّ بزالُهــا فی قعــرِ کأسٍ　　مُحفّــرة الجوانــب والقَــرارِ
مصوّرةٍ بصورة جند کســری　　وکســری فی قرار الطّرجهارِ
وجلُّ الجندِ تحت رکاب کسری　　بأعمــدة، و أقبیــةٍ قِصــارِ

(نجیب عطوی، ١٩٨٦م:١٧٠)

ویعرض هذه الصورة فی شکل آخر ویقول:

تُدارُ علینا الراحُ فی عسجدیة　　حبتها بألــونِ التصاویر فارسُ
قرارتها کســری، وفی جنباتها　　مَهَا تدَّریها بالقســیِّ الفوارسُ

(المصدر نفسه: ٢٥٠)

ویصف زوراته للحانات فی قُطْرَبُل أو غیرها من أماکن اللّهو والشراب فی ضواحی بغداد. تکون زورته غالبا باللیل والناس نیام. إنّه یدبّ وحده أو مع بعض أصحابه، فیطرق باب صاحب الحانة، وهو نصرانی حینا ویهودیا أحیانا، فیجیبهم هو أو تجیبهم ابنته ویتوجس من الطارقین أوّل الأمر، ثم لایلبث أن یطمئن إلیهم لأنّه یعرف فیهم زبائنهم الّذین اعتادوه، واعتادوا أن یقدّموا المال فی سبیل الخمر ولایبخلون، فیجود لهم بأحسنه کما یقول:

وفتیــةٍ کنجــوم اللیــلِ أوجُهُهُم　　مِــن کلِّ أغیــدَ لِلغمّــاء فــرّاجِ
أنضــاءِ کأسٍ إذا مــا اللّیل جَنَّهُمُ　　ســاقَتْهم نحوَهــا ســوقا بإزعاجِ
طرقتُ صاحبَ حانوتٍ بهم سحرا　　واللّیل مُنسَــدل الظلماء کالسّاجِ
لمّا قرعــتُ علیه البــابَ أوجَلَه　　وقالَ بینَ مُسِــرَّ الخوف والرّاجی

(المصدر نفسه: ٨٥)

وفی مکان آخر یقول:

یــا رُبَّ منــزل خمّــار أطفــتُ به　　واللّیــلُ حُلّتُــه کالقــار ســوداءُ
فقــام ذو وفــرةٍ من بطــن مضجعه　　یمیــل من ســکره و العینُ وَســناءُ
فقال: «من أنت» فی رفقٍ فقلت له:　　«بعض الکِرام» وَلی فی النعتِ أسماء

قلتُ: «إنّــي نحوتُ الخمرَ أخطبها» قــال: «الدراهَم»هــل لِلمهــر إبطاءُ
لمّــا تبيّــن أنّــى غيــرُ ذى بُخَــلٍ وليــسَ لــى شُــغُلٌ عنهــا و أبطاءُ
أتــى بهــا قهــوة كالمســكِ صافيةً كدمعــةٍ منحتْهــا الخــدَّ مرهــاءُ

(المصدر نفسه: ۲۳-۲۲)

أو فى قصيدة أخرى يقول:

وخمّــارةٍ لِلّهــو فيهــا بقيّــةٌ إليهــا ثلاثــا نحــو حانتهــا ســرنا
ولِلّيــل جلبــابٌ علينــا وحولَنــا فمــا إن ترى إنســاً لَديــه ولا جنّا
يُســايرُنا، إلاّ ســماءً نجومُهــا مُعلقّــة فيهــا، إلــى حيــثُ وجّهنا
إلــى أن طرقنــا بابَهــا بعــدَ هجعةٍ فقالتْ:مــن الطُّــرّاق؟ قُلنا لهــا: إنّا
شــبابٌ تعارفنــا ببابــكِ لــم نكن نَــروحُ بما رُحنــا إليــكَ فأدلَجنا
فــإن لــم تُجيبينــا تبــدّدَ شــملُنا وإن تجَمعينــا بالــوِداد تواصلنــا
فقالــتْ لنا: أهــلاً وســهلاً ومرحبا بفتيــانِ صــدقٍ مــا أرى بينَهم أفنا
فقلــتُ لهــا: كيــلاً حســابا مقوّما دواريــقُ خمرٍ مــا نقصــنَ ومازِدنا
فجاءت بها كالشّمس يحكى شعاعُها شُــعاعَ الثُّريّا فى زُجاجٍ لها حُســنا

(المصدر نفسه: ۳۸۰-۳۷۹)

ونكتفى بهذه النماذج فى شكل خمرياته ومن يرغب فيها أكثر، بإمكانه أن ينظر إلى قصائد أخرى له حتى يجِد مجالس الخمر وآدابها. (المصدر نفسه: ۱۱۳ و۱۲۸ و۱۶۴ و۱۶۹) إنّه يصوّر السّاقية أو الساقى ولباسه وزينته. تتشكّل هذه المجالس غالبا فى وسط الرياض أو تحت ظلام الكروم. قد اشتهرت قُطرُبلُّ والكرخُ وطيزناباذ وأماكن أخرى بشراء الخمر كما يذكرها فى أبياته:

قُطرُبلٌّ مربعى ولى بقُرى الكَر خ مصيــفٌ وأمّــى العنــبُ
تُرضِعُنــى دُرَّهــا وتلحفنــى بظَلِّهــا، والهجيــرُ يلتهــبُ

(المصدر نفسه: ۳۵)

أو يقول:

ومجلس خمّارٍ إلی جنب حانةٍ　　بقطر بُلَّ بیــن الجَنانِ الحدائق
تجــاهَ میادیــنٍ علــی جَنباتها　　ریاضٌ غَدَّتْ محفوفةَ بالشقائق

(المصدر نفسه : ۲۷۵-۲۷۴)

ویقول فی مکان آخر:

فــإنَّ جنــان الکــرخ مونقــة　　لم تلتقفها یدٌ لِلحرب عســراءُ

(المصدر نفسه: ۲۲)

وهو یمزج بین جمال الربیع وجلوته فی إبانة ونشوة. فقال فی وصف الورود والرّیاحین:

لا تخشَــعنَّ لِطــارقِ الحدثــانِ　　وادفــع همومکَ بالشّــراب القانی
أوَ ما تَری أیدی السحائب رَقَّشَتْ　　حُلَــلَ الثَــری ببدائــع الریحــانِ
من سوســنٍ غضِّ القِطاف، وخُزَّمٍ　　وبنفسَــجٍ، و شــقائق النُعمــانِ

(المصدر نفسه: ۴۱۵)

ویصوّر الساقی فی هذه البساتین ویقول:

ونحنُ بیــن بســاتین فتنَفَحُنا　　ریحَ البنفسَــج لا نشَر الخُزاماء
یسعی بها خنِثٌ فی خُلقِه دَمث　　یستأثرُ العینَ فی مستدرج الرائی
مقرّطٌ وافــرُ الأرادف، ذوغُنُج　　کأنَّ فــی راحتیه وســمَ حِنّاء
قد کسَّرَ الشَعَر واواتٍ، ونضَّدَهُ　　فوق الجبین، وردَّ الصُدغَ بالفاء
عیناه تقســم داءً فی مجاهرها　　وربّمــا نفعتْ مــن صولة الدّاء

(المصدر نفسه: ۲۵)

وفی وصف الساقیة یقول:

وذات وجــهٍ کان البدرُ حلَّ به　　یهــدی لــک الــوردُ
مطموحة الشعر فی قمص مزرّدةٍ　　العــدوُ والتُّفّــاح خداهــا
فلــو یراهــا غــلامٌ یلمحهــا　　فی زیّ ذی ذکر سیّما وسیماها

(المصدر نفسه: ۴۲۰)

أو:

واشرب سلافاً كعين الديک، صافيةً　　من كــفّ ســاقية كالّريــم، حوراء

(المصدر نفسه: ١٤)

والخمرة عنده عذراء تزفّ إليها ومهرها غالٍ وهى كريمة، لايخطبها إلاّ الكرام:

يا خاطــبَ القهوة الصهبــاء يمهرها　　بالرّطــل يأخُــذُ منهــا مِــلأهُ ذهبــا

قصّــرتُ بالرّاح فاخدر عن تســمعها　　فيحلــفُ الكــرمُ أن لايحمــل العنبا

قالت: «فمن خاطبى هذا؟» فقلتُ: أنا　　قالت: فبعلى؟ قلتُ:«الماءُ إن عَذُبا»

(المصدر نفسه: ٥٢)

أو:

وقلتُ: إنى نحوتُ الخمرَ أخطبُها: ...»　　قــال: «الدراهَم! هــل للمَهر إبطاءُ»

(المصدر نفسه: ٢٢)

وحين يشرِب الخمر من الكأس يحسّ بأنه يقبّل حبيبته التى يزهر وجهها كالنجم أو البدر:

فجوّزهــا عنّــى عُقارا تــرى لَها　　إلى الشَّــرف الأعلى شعاعا مُطَنّبا

إذا عبّ فيها شــارب القوم خلتَهُ　　يقبّــل فــى داجٍ من الليــل كوكبا

(المصدر نفسه: ٤٤)

ولم يقف عند هذا الحدّ. بل رأى فى الخمرة شيئا كبيراً من الإجلال، يبلغ ذروة التقديس أحيانا حيث يقول:

أثــنِ علــى الخمــر بآلائها　　وســمّها أحســن أســمائها

لاتجعــل المــاء لهــا قاهرا　　ولا تُســلّطها علــى مائهــا

والخمرُ قد يشــربها معشــر　　ليســوا، إذا عُــدّوا، بأكفائها

(المصدر نفسه: ١٢)

فالخمرة عنده كلّ شى، يصفها بنعوت مختلفة ويعّبر عنها بأشكال متنوعة. فهذه الخمرة، خمرة جديدة فى الشكل وفى المعنى. نكتفى بهذا المقدار من دراسة خمرياته

من حيث الشكل وسنعالجعها فى مقال آخر من حيث المضمون.

النتيجة

يتّضح لنا بعد معالجة خمريات أبى نواس من الناحية الشكليّة، بأنّه فى بدايات أمره استخدم الخمرة وسيلة للفخر يفتخر بشربها ويتلف المال فيها ليدلّ على جوده وكرمه كما يفتخر الشاعر الجاهلى. ولكنّها من ناحية الألفاظ رائعة جدا بحيث لايمكن مقارنتها بخمريات الشعراء الجاهليين. خمرته مشرقة منيرة وتضىء أينما وجدت فى البيت أو الحانوت. وهى بأضوائها و تلألؤها كالشمس وهى كالورد وكعين الديک حمراء وحين تختلط بالماء تفور وتبدو فقاقيعها فوقها بيضاء كحبّات الدرّ. إنّه يشبه الفقاقيع فى وثبتها بحركة الجراد فى ظلّ المروج. وفى تصوير الكوؤس والأ باريق يخلق صورا فنية جميلة يشبهها بظباء مشرفة من مكان عال وأحياناً هى كالكراكى لها رقاب طويلة ورؤوس دقيقة. ويصف الأماكن الّتى تباع فيها الخمر و يشرح كيفية ذهابه إليها وحده أومع أصدقائه ويطرق باب صاحب الحانة وهو نصرانىّ حينا ويهوديا حينا آخر، يجيبهم أوتجيبم إبنته ويتوجّس من الطارقين فى أول الأمر ثم يطمئنّ بأنهم من الزبائن ويسرفون أموالهم فى سبيل الخمرة. إنه يصوّر مجالس الخمر بأحسن صورة. يصور الساقية ولباسها وزينتها وحركاتها وجمالها وأجزائها الجسدية وحالاتها الروحية وكيفية نظرتها إلى الحاضرين. تتشكل المجالس عادة فى وسط الرياض أو تحت ظلام الكروم. يمزج جمال الأزهار والرياحين بجمال الساقية فى البساتين. وحين يشرب الخمر من الكأس يحسّ بأنه يقبّل حبيبته التى يزهر وجهها كالنجم أو البدر. والخمرة عندها عذراء تزفّ إليها ومهرها غال وهى كريمة لايخطبها إلّا الكرام.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
ابن عساكر. ١٣٣٢ش. *التاريخ الكبير*. لاط. الشام: مطبعة الروضة.

ابن منظور، محمد بن مكرم. ۱۹۹۵م. *أخبار أبي نواس*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

البستاني، فؤاد إفرام. ۱۹۶۰م. *المجاني الحديثة*. الطبعة الثانية. بيروت: الطبعة الكاثوليكية.

حسين، طه. ۱۹۷۶م. *حديث الأربعاء*. الطبعة الثانية عشرة. القاهرة: دار المعارف.

نجيب عطوى، علي. ۱۹۸۶م. *خمريات أبي نواس*. الطبعة الأولى. بيروت: دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر.